مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية
Anbar University Journal Of Islamic Sciences
P. ISSN: 2071-6028 E. ISSN: 2706-8722
Volume 14- Issue 4 - December 2023 | المجلد ١٤- العدد ٤ -كانون الاول ٢٠٢٣م

التأسيس المنهجي لمرحلة بدء الوحي النبوي ومرتكزاتها الدعوية

١- د. محمود بطل محمد أحمد

جامعة الشارقة – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

١- الإيميل:
Mahmoud.ahmed@sharjah.ac.ae

DOI: 10.34278/aujis.2023.181041

تاريخ استلام البحث: ٢/٤ /٢٠٢٣م

تاريخ قبول البحث للنشر: ١٤/ ٦/٢٠٢٣م

تاريخ نشر البحث: ١/١٢/٢٠٢٣م

الكلمات المفتاحية:
التأسيس المنهجي، الدعوة ، الوحي النبوي.

©Authors, 2023, College of Islamic Sciences University of Anbar. This is an open-access article under the CC BY 4.0 license (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

الملخص

تأتي هذه الدراسة لتسلط الضوء على مرحلة محورية من مراحل السيرة النبوية وهي مرحلة بدء الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لتبين آليات التأسيس المنهجي لمرتكزات أربعة من مرتكزات الدعوة وهي كل من المرتكز العقدي والمعرفي والإنساني والاجتماعي، وقد اتبعت في هذه الدراسة المنهج الموضوعي التحليلي، وتوصلت إلى العديد من النتائج منها أن بدء الوحي يُعَدُّ البداية التأسيسية للمرتكز العقدي في الإسلام من خلال التدليل على وجود الله تعالى والتأكيد على كمال أسمائه وعظيم صفاته، ومنها كذلك أن بدء الوحي مثَّل الأساس المعرفي الذي انطلقت من خلاله الأمة مستلهمة منهجية معرفية شاملة تتمثل في كون المعرفة نعمة إلهية وأنها لا تنحصر في إطار ذاتي ، وأن لها آليات عدة تتطلب استحضارا نفسيا وفكريا.

كما توصلت الدراسة إلى أن المرتكز الإنساني كان له حضوره الجوهري في هذه المرحلة الدعوية من خلال الحديث عن عظم الخلق الإنساني والمهمة الحضارية لهذا الإنسان ثم الإشارة إلى قضية القيم الإنسانية، وكذلك المرتكز الاجتماعي لم يكن غائبا عن دلالات تلك المرحلة النبوية.

The Scientific Foundation of the First Stage of Prophetic Revelation & Its Da'wah Bases.

[1] **Dr. Mahmud Batal Muhamed Ahmad**

University of Sharjah - The College of Sharia and Islamic Studies

1: Email:
Mahmoud.ahmed@sharjah.ac.ae

DOI: 10.34278/aujis.2023.181041

Submitted:	**2 /4 /2023**
Accepted:	**14 /6 /2023**
Published:	**1 /12 /2023**

Keywords:
The Scientific Foundation - Foundations of advocacy - prophetic revelation.

©Authors, 2023, College of Islamic Sciences University of Anbar. This is an open-access article under the CC BY 4.0 license (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

Abstract:

This study spotlights the outset of Descendance of divine revelation upon the Prophet Muhammad (PBUH) which is an essential stage in the Prophetic Biography. The study aims at expounding the mechanisms of scientific foundation for four major bases of Islamic Da'wah (Preaching); namely belief basis, knowledge, basis social basis, and Humane basis.

In this study, the objective analytical method was followed.

I have come to many conclusions, including that the beginning of Revelation is considered the fundamental beginning of the doctrinal foundation in Islam, proving the existence of God Almighty and emphasising the perfection of His names and the greatness of His attributes. This also includes the fact that the beginning of revelation constituted the cognitive foundation through which the nation came into being, inspired by a comprehensive cognitive methodology expressed in the fact that knowledge is a divine blessing, that it is not limited to a subjective framework, and that it has multiple mechanisms that require psychological and intellectual evocation.

Additionally, the research findings indicated that during this stage of advocacy, there was a significant emphasis on the importance of humankind and the civilizational adventure of the mankind. This was accomplished by highlighting the remarkable accomplishments of the individual and discussing their role in advancing civilization. Furthermore, the study addressed the significance of human values as a key attribute of the prophet (SAW).

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وبعد:

فإن المتأمل لمسيرة الدعوة الإسلامية يدرك أن من الحقائق المرتبطة بها قوتها الذاتية التي استطاعت من خلالها الانتشار في بيئات تحمل خلفيات فكرية متنوعة وسياقات زمانية ومكانية لم توقف اتساع رقعتها، وهذه الحقيقة توجب على كل منصف أن يتدبر مقدماتها ليظهرها في ثوبها الشامل.

ولقد مثلت حياة صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ركنا ركينا في هذه الحقيقة حيث كانت تلك الحياة مجالا عظيما من مجالات تأسيس مرتكزات الدعوة الإسلامية ليس مجرد تأسيس نظري مجرد وإنما أعطتنا القالب التطبيقي الذي تجسدت من خلاله معالم الرسالة ليكون هذا القالب التطبيقي صورة واضحة أمام كل ناظر إلى هذه الرسالة ومتأمل لبنيتها العقدية والمعرفية والإنسانية.

وحين كانت بداية كل أمر تعطي إشارة إلى حقيقته وترسم جزءا من أجزاء صورته الكلية فإن مرحلة بداية الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم قد اختُصرت فيها معالم الرسالة، وطُويت فيها مرتكزاتها، وتأسست من خلالها أصولها مما يحتم على كل راصد لحقيقة هذا الدين وباحث عن معطياته أن يتتبع هذه المرحلة ليس في قراءة تاريخية مجردة بل في نسق فكري متكامل ليستطيع أن يرى ملامح التأسيس المنهجي الذي تميزت به هذه الفترة.

وانطلاقا من هذه الأهمية يأتي هذا البحث تحت عنوان: **(التأسيس المنهجي لمرحلة بدء الوحي النبوي ومرتكزاتها الدعوية)** ليكون لبنة من لبنات القراءة المنهجية للعلاقة المحورية بين الدعوة والسيرة النبوية.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى ما يلي:

١. بيان محورية مرحلة بدء الوحي.
٢. الكشف عن معالم تأسيس المرتكز العقدي في ضوء بدء الوحي.
٣. بيان آليات التأسيس المنهجي للمرتكز المعرفي في ضوء بدء الوحي.
٤. إظهار العلاقة الجذرية بين الدعوة والمرتكز الإنساني في ضوء بدء الوحي.
٥. إظهار العلاقة المحورية بين الدعوة والمرتكز الاجتماعي في ضوء بدء الوحي.

مشكلة البحث:

يمكن تلخيص مشكلة البحث في التساؤل الرئيس التالي:

كيف يتم الربط المنهجي بين معطيات السيرة النبوية ومقتضيات الواقع الحضاري؟ وكيف يسير هذا الربط على سنن علماء الأمة ورواد حضارتها الذين استطاعوا توظيف السيرة في واقعهم المعرفي؟

من هنا يأتي هذا البحث ليكون لبنة من لبنات تناول هذه الإشكالية وإعطاء الحلول المناسبة لها وذلك من خلال تسليط الضوء على مرحلة جوهرية من مراحل السيرة النبوية وهي مرحلة بدء الوحي النبوي واستنباط دلائل التأسيس المنهجي لمرتكزاتها العقدية والمعرفية والإنسانية.

الدراسات السابقة:

لا شك في تعدد الدراسات التي تناولت السيرة النبوية لكن ما يهمنا هنا هو تلك الدراسات التي تقترب في موضوعها من دراستي، وهي كالتالي:

الدراسة الأولى: اتجاهات الكتابة والتصنيف في السيرة النبوية ودراساتها الدعوية، د. إبراهيم بن صالح الحميدان، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية العدد ٤٠ شوال ١٤٢٣هـ

الفارق بين هذه الدراسة ودراستي:

انصبت الدراسة السابقة على رصد الاتجاهات المختلفة في تصنيف السيرة النبوية كالتصنيف بالاعتبار التاريخي، والتصنيف باعتبار الموضوع، والتصنيف

بالاعتبار المنهجي، ثم تطرق إلى مناهج كتابة السيرة النبوية والدراسة الدعوية في العصر الحديث، أما دراستي فإنها تحلل فترة بدء الوحي كأنموذج لمعطيات السيرة النبوية في المرتكزات الدعوية المختلفة.

الدراسة الثانية: شبهات المعاصرين حول حديث بدء الوحي في الصحيحين (دراسة نقدية) محمد فؤاد الزعبي، محمد عيد محمود الصحاب، مجلة الجامعة للدراسات الإسلامية ٢٠١٧م

الفارق بين هذه الدراسة ودراستي

كما يظهر من عنوان هذا البحث فإنه يسلط الضوء على الشبهات المثارة حول حديث بدء الوحي ، أما دراستي فإنها تهتم باستنباط دلائل التأسيس المنهجي للأبعاد العقدية والمعرفية والإنسانية باعتبارها مرتكزات دعوية.

منهج البحث:

اتبعت في هذا البحث المنهج الموضوعي التحليلي حيث فقد استخرجت من خلاله المرتكزات الأساسية لمرحلة بدء الوحي وسبرت دلائلها.

خطة البحث:

جاء هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، وخمسة مباحث رئيسة كالتالي:

مقدمة: وبينت فيها أهمية البحث، وأهدافه، ومشكلته، وأبرز الدراسات السابقة، وخطة البحث.

التمهيد: المفاهيم الرئيسة في عنوان البحث.

المبحث الأول: محورية مرحلة بدء الوحي في أحداث السيرة النبوية.

المبحث الثاني: بدء الوحي والتأسيس المنهجي للمرتكز العقدي.

المبحث الثالث: بدء الوحي والتأسيس المنهجي للمرتكز المعرفي.

المبحث الرابع: بدء الوحي والتأسيس المنهجي للمرتكز الإنساني.

المبحث الخامس: بدء الوحي والتأسيس المنهجي للمرتكز الاجتماعي.

التمهيد:

المفاهيم الرئيسة في عنوان البحث:

أولا: مفهوم السيرة النبوية:

السيرة لغة: هي الطريقة والسنة(١).

وأما في الاصطلاح: فهي مجمل حياته صلى الله عليه وسلم بما تحوي من أقوال وأفعال وتقريرات ومناقب وخصائص ومعجزات (٢).

ثانيا: مفهوم مرتكزات الدعوة:

مرتكزات جمع مرتكز، وأصله من الثبات والاعتماد يقال: ارتكز الرجل على قوسه، إذا وضع سيتها بالأرض ثم اعتمد عليها، وارتكز هذا، أي: ثبت(٣).

وأما مفهوم الدعوة فإنها تعني الدعوة إلى الإيمان به وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا(٤).

وعرفت أيضا بأنها تبليغ هداية الله تعالى إلى خلقه في ضوء ما جاء في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والسيرة النبوية العطرة وما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين المهديين(٥).

والمراد بمرتكزات الدعوة أركانها الثابتة التي لا يمكن أن تقوم ماهية الدعوة إلا بها.

---

(١) ينظر: علي بن إسماعيل ابن سيده. *المحكم والمحيط الأعظم*. طـــ١. (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠ م)، ٥٧٢/٨.

(٢) ينظر: عمار عبودي. *تطور كتابة السيرة النبوية*. ط١(بغداد، دار الشؤون، ١٤١٨هـــ)

(٣) ينظر: أحمد بن فارس، معجم *مقاييس اللغة*، طـــ١، (بيروت، دار إحياء التراث العربي٢٠٠١م)، صـــ٣٩٩.

(٤) أحمد ابن تيمية. *مجموع الفتاوى*. تح: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. ط١. (السعودية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٩٩٥م)، ١٥٧/١٥. سعيد بن علي القحطاني. *فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري*. طـــ١. (السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف،١٤٢٠هـــ)، ١٨١/١.

(٥) أحمد عمر هاشم. *الدعوة الإسلامية منهجها ومعالمها*. (مكتبة غريب)، صـــ٦.

ثالثا: مفهوم بدء الوحي:

ذكر ابن فارس أن كلمة (بدأ) يرجع معناها إلى افتتاح الشيء، يقال: بدأت بالأمر وابتدأت، من الابتداء(١).

وأما كلمة الوحي فحين نرجع إلى جذرها اللغوي نجد أنه (وحى)، وقد ذكر ابن فارس أن هذا الأصل يدل على إلقاء علم في إخفاء أو غيره إلى غيرك. فالوحي: الإشارة. والوحي: الكتاب والرسالة. وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى علمه فهو وحي كيف كان، وكل ما في باب الوحي فراجع إلى هذا الأصل الذي ذكرناه. والوحي: السريع: والوحي: الصوت (٢).

ولم يخرج ما أورده ابن منظور في اللسان عن هذه المعاني(٣).

إننا من خلال هذا التأصيل اللغوي نلاحظ اتساع الدلالة اللغوية لكلمة الوحي حتى تشمل التبليغ بوسائل متعددة من الإلقاء في خفاء أو الإشارة أو الكتابة.

والوحي في الاصطلاح عرفه ابن الملقن بأنه "إعلام الله تعالى أنبياءه ما شاء من أحكامه، فكل ما دلت عليه من كتاب أو رسالة أو إشارة بشيء فهو وحي، ومن الوحي الرؤيا والإلهام."(٤)

يتبين لنا من خلال ما مضى أن المراد ببدء الوحي تلك الفترة التي شهدت افتتاح الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم وما سبقها من ممهدات.

---

(١) ابن فارس، صـــ١٠٢

(٢) المرجع نفسه، صـــ١٠٤٦

(٣) ينظر: محمد بن مكرم ابن منظور. *لسان العرب*. ط٣. (بيروت: دار صادر، ١٤١٤هـــ)، ٣٧٩/١٥.

(٤) عمر بن علي ابن الملقن. *التوضيح لشرح الجامع الصحيح*، طـــ١.(دمشق: دار النوادر، ٢٠٠٨م)، ١١٧/٢.

المبحث الأول: محورية مرحلة بدء الوحي في أحداث السيرة النبوية.

لا شك في عظم جميع مراحل السيرة النبوية سواء تلك التي كانت في العهد المكي أو التي تنتمي إلى العهد المدني حيث إن كل مرحلة من مراحل السيرة وكل حدث من أحداثها كان له سمته التأسيسية لمعلم من معالم الدعوة، وتأتي مرحلة بدء الوحي لتمثل واحدة من أعظم هذه المراحل، ومما يدلل على محورية هذه المرحلة ما يلي:

أولا: أن بداية الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم تعد تأسيسا لما أتى في الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقا؛ لذا ابتدأ الإمام البخاري به قبل الحديث عن الإيمان وما يتبعه من الشرائع والآداب، وعلل الحافظ ذلك بقوله: "لأن بالوحي قامت الشرائع، وجاءت الرسالة، ومنه عُرف الإيمان والعلم"(١).

ومن إشارات الإمام البخاري إلى عِظَم باب الوحي ابتداؤه كتاب بدء الوحي بالحديث الجامع للإسلام وهو حديث إنما الأعمال بالنيات، وذكر الحافظ عدة أوجه في هذه المناسبة ثم قال: "ومن المناسبات البديعة الوجيزة ما تقدمت الإشارة إليه أن الكتاب لما كان موضوعا لجمع وحي السنة صدره ببدء الوحي، ولما كان الوحي لبيان الأعمال الشرعية صدره بحديث الأعمال(٢).

ثانيا: أن هذه المرحلة اكتنفتها العديد من الإشكاليات، ومن أشهرها إشكاليات أربعة والتعاطي مع هذه الإشكاليات بمنهجية علمية واجب من واجبات الدعاة إلى الله تعالى، وهذه الإشكاليات كالتالي:

الأولى: ما ورد من الروايات في تحديد أول ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ورد في ذلك خبران: الأول حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها

---

(١) أحمد بن حجر العسقلاني. *فتح الباري شرح صحيح البخاري*. (بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩هـ)، ١/٤٧٠.

(٢) المرجع نفسه، ١/١١.

وهو يدل على أن أول ما نزل الآيات الأول من سورة العلق[١]، والثاني حديث جابر رضي الله عنه، فعن أبي سلمة قال "سألت جابر بن عبد الله أي القرآن أنزل أول؟ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾المدثر: ١، فقلت: أنبئت أنه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ العلق: ١، فقال: لا أخبرك إلا بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"جاورت في حراء، فلما قضيت جواري هبطت، فاستبطنت الوادي فنوديت فنظرت أمامي وخلفي، وعن يميني وعن شمالي، فإذا هو جالس على كرسي بين السماء والأرض، فأتيت خديجة فقلت: دثروني، وصبوا علي ماء باردا، وأنزل علي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾ المدثر: ١ – ٣، وقد جمع المحققون من العلماء بين هذين الخبرين، وبينوا أن صدر سورة العلق هو أول ما نزل، وأما سورة المدثر فقد نزلت بعد ذلك.

قال أبو حاتم: "هذان خبران أوهما من لم يكن الحديث صناعته أنهما متضادان وليس كذلك، إن الله عز وجل بعث رسوله صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين وهو ابن أربعين سنة، ونزل عليه جبريل وهو في الغار بحراء ب ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ العلق: ١، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت خديجة ودثروه أنزل الله عليه في بيت خديجة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾ المدثر: ١ – ٣ من غير أن يكون بين الخبرين تضاد ولا تهاتر." [٢]

الثانية: ما جاء في بعض الروايات في مسألة فترة الوحي من أن فترة الوحي استمرت مدة طويلة أوصلتها بعض الروايات إلى ثلاث سنوات، والذي عليه المحققون أن فترة الوحى لم تدم إلا أياما[٣] .

---

(١) محمد بن إسماعيل البخاري. *صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ، وسننه وأيامه)*. تح: محمد زهير بن ناصر الناصر. ط١. (دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ)، ١/٧، رقم٣.

(٢) محمد البستي ابن حبان. (ت: ٣٥٤هـ). *السيرة النبوية وأخبار الخلفاء*. طـ١، (الأسكندرية، دار ابن خلدون) صـ٣٨

(٣) ينظر: أحمد بن حجر العسقلاني. *فتح الباري*، جـ١، صـ٢٧

الثالثة: الرواية التي أوردها البخاري في صحيحه بلاغا والتي تذكر أن الوحي قد فتر فترة حتى حزن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما بلغنا، حزنا غدا منه مرارا كي يتردى من رءوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدى له جبريل، فقال: يا محمد، إنك رسول الله حقا، فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك [١] .

وقد ذكر العلماء أن هذه الرواية لا تعد على شرط البخاري لأنها من البلاغات ففيها انقطاع في السند، والمنقطع نوع من أنواع الضعيف(٢).

الرابعة: تحديد أول ما نزل بعد فترة الوحي فقد جاء في بعض الروايات أن أول ما نزل بعد فترة الوحي سورة المدثر، وورد في بعضها أن أول ما نزل بعد فترة الوحي سورة {والضُّحَى} .

والذي ذهب إليه المحققون أن أول ما نزل بعد فترة الوحي سورة المدثر[٣] .

ثانيا: أن هذه المرحلة قد نالت حيزا كبيرا من ادعاءات المشككين[٤] محاولين من خلالها هدم مصدرية هذا الدين، وتنوعت مزاعمهم في ذلك، ومن أشهرها زعمهم بأن الوحي ظاهرة نفسية تشبه الجنون، وقد فند العلماء هذه الادعاءات إيمانا منهم بخطورتها، ومن ذلك ما ذكره الرازي في صدد تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾ الأعراف: ١٨٤ وبيانه أن الحالة العجيبة التي كانت تغشاه صلى الله عليه وسلم مع نزول الوحي من تغير وجهه واصفرار لونه

---

(١) البخاري، كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة، ٢٩/٩، رقم ٦٩٨٢.

(٢) ينظر: أحمد بن حجر العسقلاني. *فتح الباري* ٣٥٨/١٢

(٣) ينظر: محمود بن محمد، العيني، *عمدة القاري شرح صحيح البخاري*، (بيروت، دار إحياء التراث العربي) ٦٢/١.

(٤) لتفصيل هذه الادعاءات ينظر: محمد فؤآد – محمد عيد، "شبهات المعاصرين حول حديث بدء الوحي في الصحيحين (دراسة نقدية)"، *مجلة الجامعة للدراسات الإسلامية*، ٢٠١٧م.

ظنها بعض الجهال أنها نوع من الجنون، وقد أبطل الله تعالى كلامهم آمرا لهم بالتفكر في أحواله إذ كيف يكون مجنونا وهو يدعوهم إلى الله تعالى ويقيم البينات الباهرة والبراهين القاطعة كل ذلك بألفاظ بلغت في فصاحتها درجة عجز عن مجاراتها الإنس والجن، إضافة إلى ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من العشرة الطيبة والخلق الحسن والطريقة المرضية والسيرة النقية فكيف يوصف مع كل ذلك بالجنون؟![١].

بعد أن بينا مفهوم الوحي ومحورية مرحلة بدء الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم في أحداث السيرة النبوية نلقي الضوء الآن على دلائل التأسيس المنهجي لمرتكزات الدعوة في ضوء بدء الوحي.

المبحث الثاني: بدء الوحي والتأسيس المنهجي للمرتكز العقدي

إن من يتدبر تاريخ الرسالات الإلهية يدرك أن المكون العقدي يشكل المحورية العظمى التي تنسبك فيها هذه الرسالات، لذلك لم يكن من المستغرب أن يؤصل لهذا المرتكز في مرحلة بدء الوحي حيث إن هذه المرحلة هي المرحلة الأولى التي تأتي في مقابلة الواقع العقدي في البيئة العربية بل في البيئة الإنسانية.

يقول الشامي: "وقد كان الناس في الزمن الأول قبل المبعث وهم على فترة من الرسل قد امتُحنوا بموت القلب وذهاب العلم حتى أصابهم اللَّه برحمة من عنده فأفاض عليهم سجال الوحي السماويّ، فأشبهت حالهم حال من توالت عليه السّنون وأخلفتهم المخايل حتى تداركهم اللَّه بلطفه وأرخت عليهم السماء عزاليها، ثم كان حظّ كل فريق من تلك الرحمة على ما ذكره من الأمثلة والنظائر" [٢] .

---

(١) ينظر: محمد بن عمر الرازي. *مفاتيح العيب أو التفسير الكبير*. طـــ٣. (بيروت: دار إحياء التراث العربي،١٤٢٠هـــ)،١٥/٤٣٠.

(٢) محمد بن يوسف الشامي. *سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد*. تحقيق وتعليق: عادل أحمد – وعلي محمد. طـــ١. (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م)، ٢/ ٢٨٢.

لقد درست معالم التوحيد حتى رأينا هذا الأنموذج الذي مثَّله الحصين حين قال له النبي صلى الله عليه وسلم «يا حصين كم تعبد اليوم إلها»؟ قال سبعة ستة في الأرض وواحدا في السماء. قال: «فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك»؟ قال: الذي في السماء. قال: «يا حصين أما إنك لو أسلمت علمتك كلمتين تنفعانك». قال: فلما أسلم حصين قال: يا رسول الله علمني الكلمتين اللتين وعدتني، فقال: " قل: اللهم ألهمني رشدي، وأعذني من شر نفسي" (١) .

ومع كون التناقض خللا فكريا؛ لأنه يُثبت الشيء وينفيه في آن واحد فإن أهل الجاهلية اتخذوه مسلكا في قضية التوحيد فكانوا يثبتونه بألسنتهم وينفونه في آن واحد كما يدل عليه ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان المشركون يقولون: لبيك لا شريك لك، قال: فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ويلكم، قد قد» فيقولون: إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك، يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت(٢).

قال النووي: معناه أنهم كانوا يقولون هذه الجملة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول اقتصروا على قولكم لبيك لا شريك لك(٣).

أمام هذه الواقع العقدي كان لا بد من أخذ قضايا العقيدة موقعها المناسب لها وبيانها بيانا شافيا من أول مرحلة من مراحل النبوة (٤).

---

(١) أخرجه الترمذي، باب جامع الدعوات عن النبي صلى الله عليه وسلم، محمد بن عيسى الترمذي. *سنن الترمذي*. تح: أحمد محمد شاكر وآخرون. طـــ٢. (مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٧٥م)، ٥١٩/٥، برقم ٣٤٨٣.

(٢) أخرجه مسلم بن الحجاج. *صحيح مسلم*، تح: محمد فؤاد عبد الباقي. (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، كتاب الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها، ٨٤٣/٢، برقم ١١٥٨٣.

(٣) يحيى بن شرف النووي. *المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج*. طـــ٢. (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢هـــ)، ٩٠/٨.

(٤) ينظر: هاشم، أحمد عمر، الدعوة الإسلامية منهجها ومعالمها، صـــ١٧.

إن الحديث عن أصول الإيمان والحث عليها والتزامها من الأمور التي ينبغي للداعية أن يعتني بها عناية خاصة ؛ لأن بالتزامها والعمل بمقتضاها تصلح أحوال الناس وترسخ العقيدة الصحيحة في نفوسهم(١).

ولقد كانت دلالات التوحيد ظاهرة جلية في مرحلة بدء الوحي، ويمكن أن نستجلي ذلك من خلال المعالم التالية:

المعلم الأول: الإشارة إلى دلائل وجود الله ووحدانيته:

مع كون الإسلام دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها إلا أن ذلك لم يمنع من احتواء مصدريه العظيمين من الكتاب والسنة على الأدلة المبرهنة على وجوده تعالى ووحدانيته لتكون هذه الأدلة زيادة في الاطمئنان للمستبصرين وتقويما للفطر التي انتكست بسبب التقليد الأعمى أو الانحراف في آليات التفكير، وقد أشير في أول آيات نزلت في الوحي إلى دليل من أدلة وجود الله تعالى وهو دليل الخلق.

قال الرازي: "لم ذكر عقيب قوله: (ربك) قوله: (الذي خلق)؟ الجواب: كأن العبد يقول: ما الدليل على أنك ربي؟ فيقول: لأنك كنت بذاتك وصفاتك معدوما ثم صرت موجودا فلا بد لك في ذاتك وصفاتك من خالق، وهذا الخلق والإيجاد تربية فدلَّ ذلك على أني ربك وأنت مربوبي"(٢) .

وقد بين الرازي أن قوله:(الذي خلق) إن لم نقدر له مفعولا فهو يكون بمعنى أنه الذي حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه، وإن قدرنا له مفعولًا يكون المعنى أنه الذي خلق كل شيء، فيتناول كل مخلوق، لأنه مطلق، فليس حمله على البعض أولى من حمله على الباقي، كقولنا: الله أكبر، أي من كل شيء.(٣)

(١) القحطاني، ١/ ١٨١.
(٢) الرازي، ٣٢/ ٢١٦.
(٣) المرجع نفسه، ٢٢/ ٢١٦٤٥.

إن هذه الآية دليل على أنه لا خالق غير الله تعالى لأنه سبحانه جعل الخالقية صفة مميزة لذات الله تعالى عن سائر الذوات، وكل صفة هذا شأنها فإنه يستحيل وقوع الشركة فيها(١) .

المعلم الثاني: التأكيد على أهمية معرفة أسماء الله تعالى وصفاته:

من الإشارات العقدية في مرحلة بدء الوحي التأكيد على محورية معرفة أسمائه الحسنى في البناء العقدي؛ لذا كانت أول الآيات التي ابتدئ بها الوحي تؤصل لهذه المحورية﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ العلق: ١.

لقد كان التوجيه إلى التعلق باسمه تعالى في بدء الوحي إيذانا بأن هذا من أسس الرسالة النبوية، وأنه سيمثل معلما من معالم توجيهاته صلى الله عليه وسلم للأمة حتى رأينا حرصه صلى الله عليه وسلم على ابتداء صلح الحديبية بذلك، فحين جاء سهيل بن عمرو وقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتابا فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الكاتب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «بسم الله الرحمن الرحيم»، قال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما أدري ما هو ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «اكتب باسمك اللهم»(٢).

ولقد تكرر التأكيد على التعلق بأسمائه تعالى في المسيرة الدعوية، ومن ذلك جعله ضمانة من ضمانات القيم الإنسانية التي أتت بها الرسالة، فعن صفوان بن عسال المرادي، قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية، فقال: " اغزوا بسم الله في سبيل الله، ولا تغلوا، ولاتغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا(٣).

---

(١) الرازي، ٢٢/ ٢١٦.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، ٣/ ١٩٣، برقم٢٧٣١.

(٣) أحمد بن علي أبو يعلى. *مسند أبي يعلى*. تح: حسين سليم أسد. طـــ١. (دمشق: دار المأمون للتراث، ١٩٨٤م)، ٢/٢١٤، برقم ٩١٢.

وحين كانت الرسائل إلى الملوك إحدى وسائل الدعوة التي اتبعها النبي صلى الله عليه وسلم فإننا رأينا فيها التأكيد على أهمية استحضار اسم الله تعالى في هذه الوسيلة كما في رسالته صلى الله عليه وسم إلى هرقل(١)، وإلى كسرى(٢).

وقد دلت الآيات التي نزلت في بدء الوحي على كمال صفاته تعالى حيث إنه لما كان خلق الإنسان أول النعم الفائضة عليه منه تعالى وأقدم الدلائل الدالّة على وجوده عز وجل وكمال قدرته وعلمه وحكمته سبحانه وصف ذاته تعالى بذلك(٣).

وحين نتدبر الآيات الخمس التي افتُتح بها الوحي إلى صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم نجد أنها قد جمعت أصول الصفات الإلهية، فوصف (الرب) يتضمن الوجود والوحدانية، ووصف (الذي خلق) ووصف (الذي علم بالقلم) يقتضيان صفات الأفعال، مع ما فيه من الاستدلال القريب على ثبوت ما أشير إليه من الصفات بما تقتضيه الموصولية من الإيماء إلى وجه بناء الخبر الذي يذكر معها. ووصف (الأكرم) يتضمن صفات الكمال والتنزيه عن النقائص(٤).

المعلم الثالث: تقرير وجوب إفراده تعالى بالعبادة:

حين كان من صور الانحراف العقدي لدى العرب قبل الإسلام صرف أنواع من العبادة لغيره تعالى رأينا الآيات التي نزلت في بدء الوحي تقرر أن من أركان التوحيد صرف العبادات له وحده تعالى وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ العلق: ١، حيث ذكر الألوسي أن من دلائل هذه الآية تأكيد عدم إرادة غيره

(١) الشامي، ١١/ ٣٥٣.

(٢) المرجع نفسه، ١١/ ٣٦٢.

(٣) محمود بن عبد الله الألوسي. *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*. تح: علي عبد الباري. ط١. (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ)، ٤٠٢/١٥.

(٤) محمد الطاهر ابن عاشور. *التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)*. (تونس: الدار التونسية،١٩٨٤م)، ٤٤٠/٣٠.

تعالى من الرب فإن العرب كانت تسمي الأصنام أربابا لكنهم لا ينسبون الخلق إليها[١] .

المعلم الرابع: تقرير أن النبوة اصطفاء من الله تعالى:

مثَّل نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم تأكيدا على أن النبوة اصطفاء من الله تعالى وليست درجة من درجات الاجتهاد البشري في الجانب الروحي كما ذهب إليه بعض الفلاسفة، وقد بين الأصبهاني أن هناك أنواعا أربعة من الخصائص التي اختص الله بها الأنبياء وهي:

* **الفضيلة النوعية:** ومعناها أن الله تعالى الحكيم القدير لا يصطفي للرسالة سوى من كان متقدما المرسل إليهم متزينا بجميع المناقب.

* **الفضيلة الإكرامية:** ومعناها أن الله تعالى الرحيم إذا أمر رسوله بالتبليغ عنه أمده بما يقوي قلبه، ويشحذ قريحته.

* **الإمداد بالهداية:** ومعناها أن الله العظيم حين يقلد عبدا من عباده أمر الرسالة فإن حكمته تعالى تقضي أن لا يجعله خاليا من مواد ترشده لعلمه سبحانه أن ما كان من العلوم المكتسبة لا ينال إلا تعريفا.

* **التثقيف:** وتعني أن الله اللطيف بعباده، لا يعدم صفيه المرشح لأن يحمل أثقال النبوة التنبيه والتثقيف، وإليه يرجع قوله تعالى لنوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ هود: ٤٦[٢].

وبعد هذا التأصيل من قبل الأصبهاني للخصائص الأربعة بيَّن أنها لا تنال بالاكتساب والاجتهاد[٣] .

---

(١) ينظر: الألوسي، ١٥/ ٤٠١.

(٢) ينظر: أحمد بن عثمان، المزيد، مختصر *دلائل النبوة* للأصفهاني، طـــ١، (دار مدار الوطن للنشر، طـــ١، ٢٠١٧م)، صـــ٧٦.

(٣) ينظر: المرجع نفسه، صـــ٧٦.

سادسا: أن نزول الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم اقترن بنزول المعجزة الكبرى له وهي القرآن الكريم والذي هو كما وصفه الأصبهاني أم المعجزات الذي لا يدفعه الإنكار ولا الجحد(١) .

وإذا كان من الأقوال المعتبرة في القدر المعجز من القرآن أنه مقدار سورة الكوثر(٢) فإن الآيات التي افتُتح بها الوحي لا شك أنها يصدق عليها الإعجاز.

إن تقرير الجانب العقدي في أول مرحلة من مراحل السيرة النبوية وما تلاها من المراحل قد ترك ظلاله على المسيرة الدعوية من خلال ما يلي:

١. جعل لدى الدعاة وعيا متكاملا بأوجه تميز هذه الرسالة عن لوثات الإطار العقدي الذي كان عليه العرب قبل مجيء الرسالة.
٢. زود الدعاة إلى الله تعالى بما يمكنهم من مواجهة الانحرافات العقدية التي كانت رائجة في البيئات التي دخلها الإسلام، ولولا القوة الذاتية للمكون العقدي وتأسيسه في ثنايا وحي إلهي تكفل الله بحفظه لما كان لهذا المكون أن يبقى صافيا متلألأ.
٣. أوجد لدى الدعاة إلى الله يقينا بمحورية المكون العقدي في البناء الحضاري الذي انطلق مع مجيء الإسلام.

أوجه توظيف هذا المرتكز في الواقع المعاصر:

أ- أخذ الجانب العقدي محوريته المستحقة من خارطة الخطاب الدعوي المعاصر.

ب- رصد المذاهب الفكرية في الواقع الفكري المعاصر والقيام بنقدها نقدا منهجيا من خلال ما تمت الإشارة إليه في المرتكز العقدي لمرحلة بدء الوحي.

ت- حتمية استحضار الدلالات الدعوية للمرتكز العقدي في أي تعاط مع الأزمة الحضارية الراهنة التي يعيشها العالم الإسلامي.

---

(١) ينظر: المرجع نفسه، صـــ٧٦.

(٢) ينظر: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، *الإتقان في علوم القرآن*، تح: محمد إبراهيم. (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م)، ٢٠/٤.

المبحث الثالث: بدء الوحي والتأسيس المنهجي للمرتكز المعرفي

من الحقائق التي لا يمكن المراء فيها اتساع الإطار المعرفي للحضارة الإسلامية كما وكيفا بحيث أضحى هذا الاتساع جزءا من الاتساع المعرفي الإنساني العام؛ لذا فإن البحث عن جذور هذا الاتساع المعرفي يعد من القضايا الملحة ليس فحسب للتدليل على أصالة البعد المعرفي للرسالة بل كذلك لأن هذه الجذور كفيلة بأن تعيد ارتقاء العقلية الإسلامية في سلم التحضر الإنساني.

وحين نتدبر مرحلة بدء الوحي تلك المرحلة التأسيسية للرسالة النبوية نجد أن لها صلات عظيمة بتأسيس الرؤية الإسلامية لقضية المعرفة، ويمكن أن نبين ذلك من خلال المعالم التالية:

المعلم الأول: بيان أن البعد المعرفي من الأبعاد التأسيسية لحقيقة الرسالة

إن الآيات التي نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم في بدء الوحي تدلل على كون البعد المعرفي من الأبعاد التأسيسية لحقيقة الرسالة وأنه ليس بعدا ناشئا عن تطور اجتماعي أو ثقافي أو احتكاك بأنساق حضارية، وهذا يبين أن الاتصال الحضاري الذي انفتح عليه المسلمون لم يكن تأثيره في الانطلاقة المعرفية ذاتها ولا في أسسها الحاكمة إنما كان في اتساع المعرفة الناشئة عن التجربة الإنسانية المتراكمة وتطوير آليات التعليم والتعلم.

وقد أشار السهيلي إلى هذه الدلالة حين ذكر لنا حالة العرب قبل بدء الوحي وكيف كان بدء الوحي نقلة نوعية في التاريخ العربي.

قال السهيلي: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ العلق: ٤ – ٥ ، لأنها كانت أمة أمية لا تكتب فصاروا أهل كتاب وأصحاب قلم فتعلموا القرآن بالقلم، وتعلمه نبيهم تلقينا من جبريل نزله على قلبه بإذن الله ليكون من المرسلين[١] .

(١) عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي. *الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام*. تح: عمر عبد السلام السلامي. طـــ١. (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٠م)، ٢/٢٦٠.

إن استيعاب العلاقة المتجذرة بين البعد المعرفي وطبيعة الرسالة من خلال بدايتها يهدم الوهم الذي ترسخ لدى بعض المشككين من أن الانطلاقة المعرفية التي شهدتها الحضارة الإسلامية لم تكن أصيلة.

وإزاء هذا التأسيس لم يكن من المستغرب أن تبدأ الانطلاقة المعرفية للأمة من خلال التدبر في هذا الكتاب الذي افتتح الله تعالى نزوله بهذه الآيات المؤسسة للمعرفة؛ لذا ذكر ابن خلدون أن القرآن والسنة أساس العلوم النقلية وما يرتبط بها من المعارف التي تمهدها للإفادة(١) .

إننا يتحتم علينا أن نقرأ حادثة بدء الوحي ونزول القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم على أنها نقلية معرفية للعرب وغيرهم ذلك لما احتواه القرآن الكريم من شمولية موضوعية كانت كفيلة باتساع المعرفة.

ولو تحدثنا فقط عن تلك العلوم المتعلقة تعلقا مباشرا بالقرآن لوجدنا أنها شغلت حيزا معرفيا عظيما كعلم القراءات وعلم الرسم وعلم التفسير وغيرها من العلوم. (٢)

إن تأسيس العلاقة بين الدعوة إلى الله والبعد المعرفي وإن كان قد بدأ مع بداية الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلا أنه قد تم تأكيده فيما نزل بعد ذلك من الآيات كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ يوسف: ١٠٨، فمفهوم البصيرة كمفهوم معرفي أضحى ركنا أساسيا من أركان المنهجية النبوية في الدعوة إلى الله، وقد ألمح ابن كثير إلى أن مفهوم البصيرة هنا مفهوم متسع شامل لنوعي البرهان الشرعي والعقلي(٣) .

---

(١) ينظر: عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، *مقدمة ابن خلدون*، (دار البلخي،٢٠٠٤م)، ٢/ــ١٧١.

(٢) ينظر: المرجع نفسه، ــ٢/ــ١٧١.

(٣) ينظر: إسماعيل ابن كثير. *تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)*. تح: محمد حسين. طــ١. (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هــ)، ٤/ ٤٢٢.

وقد توالى التأكيد النبوي على الارتباط المحوري بين العلم والدعوة من خلال إعداد منهجي لثلة من أصحابه صلى الله عليه وسلم وبعثهم في مهمات تعليمية، ومن ذلك إرسال مصعب بن عمير مع وفد العقبة الأولى(١) .

المعلم الثاني: تقرير أن المعرفة في الرؤية الإسلامية نعمة إلهية

إن المعرفة في الرؤية الإسلامية نعمة إلهية؛ لذا لم يأت التوجيه الإلهي في بدء الوحي آمرا بالقراءة فحسب، بل جاء رابطا إياها باسمه تعالى {اقرأ باسم ربك} أي إنك لا تقرؤه بحولك، ولا بصفة نفسك، ولا بمعرفتك، ولكن اقرأ مفتتحا باسم ربك مستعينا به فهو يعلمك كما خلقك(٢) .

إن هذا الملمح يعصم الحركة المعرفية من التنكر للخالق مهما كانت قوتها بل يجعل كل تجلياتها أثرا من آثار قدرته تعالى، وقد درج الكثير من أئمة السنة على الاقتصار في تصانيفهم على البدء بالاسم المبارك كالإمام البخاري وشيوخه وشيوخ شيوخه وأهل عصره كمالك في الموطأ وعبد الرزاق في المصنف وأحمد في المسند وأبي داود في السنن وغيرهم كثير، وقد استقر عمل الأئمة المصنفين على افتتاح كتب العلم بالبسملة وكذا معظم كتب الرسائل(٣).

ولأن المعرفة نعمة إلهية فإنها لا تنحصر في وسيلة بعينها؛ لذا ذكر العلماء أن قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ العلق: ٥ ، بدل اشتمال من ﴿عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ أي علمه به وبدونه من الأمور الكلية والجزئية والجلية والخفية ما لم يخطر بباله، وفي حذف المفعول أولا وإيراده بعنوان عدم المعلومية ثانيا من الدلالة على كمال قدرته تعالى وكمال كرمه عز وجل والإشعار بأنه تعالى يعلمه عليه الصلاة والسلام من العلوم ما لا يحيط به العقول ما لا يخفى (٤).

---

(١) ينظر: عبد الملك بن هشام. *السيرة النبوية لابن هشام*. تح: مصطفى السقا وآخرون. طـــ٢. (مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٥٥م)، ٢/٥٨.

(٢) السهيلي، ٢/ ٢٥٩.

(٣) ينظر: العسقلاني، *فتح الباري*، ١/٩.

(٤) الألوسي، ١٥/ ٤٠١.

المعلم الثالث: أن الغاية الكبرى من العلم في الإسلام هي التعرف على الخالق واكتشاف أسرار الخلق الدالة عليه؛ لذا وجدنا الأمر بانطلاق الملكة العلمية مرتبطا بقضية الخلق من حيث إنها إحدى الدلائل على ربوبيته تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾ العلق: ١ – ٣.

لقد كانت هذه الإشارة القرآنية تأسيسًا للرؤية الإسلامية العامة للعلوم الكونية والإنسانية وكونها جميعا دائرة في فلك اكتشاف آثار صفاته تعالى؛ وإذا كانت الحضارة الإسلامية قد انطلقت في آفاق هذه المعارف واستطاع المسلمون أن يمسكوا بزمامها وأن يكونوا الحلقة الأعظم في بنيانها فإن ذلك لم يكن بمعزل أبدا عن هذه الرؤية العامة التي أسستها نصوص الوحي الإلهي حتى رأينا ابن سينا مثلا بعد أن تحدث عن منافع الظفر ختم كلامه قائلا: تبَارك الله أحسن الْخَالِقِينَ وَرب الْعَالمين[١].

وبعد أن تحدث عن منافع المياه للجسد ختم كلامه بقوله: لنحمد الله الَّذِي جعل الشَّرَاب دَوَاء معينا للقوى الغريزية[٢] .

إن هذا الارتباط الوثيق بين المعرفة في الرؤية الإسلامية وبين المكون العقدي يعطي الخطاب الدعوي حصانة أمام الفلسفات التي تتجه بالمعرفة الإنسانية اتجاها إلحاديا أو تشكيكيا، ويجعل من هذا الخطاب خطابا قادرا على إقامة البراهين والحجج على وجود الله تعالى ووحدانيته.

المعلم الرابع: عدم انحصار المعرفة في إطار ذاتي:

إن المعرفة التي نشأت مع بدء الوحي لم تكن معرفة محصورة في إطار ذاتي دون أن يكون لها مردود إنساني عام؛ لذا قال بعض المفسرين في معنى تكرار الأمر بالقراءة في الآيات التي نزلت في بدء الوحي أن المعنى: اقرأ أولا لنفسك، والثاني للتبليغ، أو الأول للتعلم من جبريل والثاني للتعليم، أو اقرأ في صلاتك، والثاني خارج صلاتك[٣].

---

(١) ابن سينا، القانون، ١/ ٦٥.

(٢) المرجع نفسه، ١/٦٨٦.

(٣) الرازي، ٣٢/ ٢١٦.

إن هذا التأسيس الإسلامي للمعرفة هو الذي جعل من المعرفة التي انطلقت في ثنايا الحضارة الإسلامية تتوخى بالأساس النفع الإنساني، وقد أكد على ذلك الهدي النبوي، فعن أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: في دبر الفجر: " اللهم إني أسألك علما نافعا، وعملا متقبلا، ورزقا طيبا(١) .

وكان هذا المعلم واضحا لدى رواد الحضارة الإسلامية، فقد قال أبو بكر محمد بن جعفر سمعت ابن خزيمة – وسئل: من أين أوتيت هذا العلم؟ فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " ماء زمزم لما شرب له" وإني لما شربت ماء زمزم سألت الله علما نافعا(٢) .

وجاء عن قتادة: أنه كان يقول في هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ آل عمران: ١٨٧، قال: «هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم، فمن علم علما فليعلمه، وإياكم وكتمان العلم، فإنها هلكة(٣) .

المعلم الخامس: الاهتمام بآليات المعرفة وتطورها:

لم تؤسس الآيات التي نزلت في بدء الوحي لقيمة المعرفة فحسب، بل أشارت إلى آلية عظمى في تحصيل المعرفة وانتشارها وتطورها وهي الكتابة وذلك في قوله تعالى (علم بالقلم)، وقد ذكر الرازي أن الآية تدل على فضل الكتابة سواء قلنا بأن القلم هو الكتابة التي تعرف من خلالها الأمور الغائبة وذُكِر القلم من باب الكناية عنها أم قلنا بأن المعنى تعليم الإنسان الكتابة بالقلم(٤).

---

(١) أخرجه ابن حنبل، مسند /حمد، ١٤٠/٤٤، برقم٢٦٥٢١.

(٢) محمد بن أحمد الذهبي. *تذكرة الحفاظ*، ط١. (لبنان: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م)، ٢/ ٢٠٨.

(٣) أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، تفسير القرآن، تح: سعد بن محمد السعد، ط١، (المدينة النبوية، دار المآثر، ٢٠٠٢م)، ٥٢٧/٢

(٤) ينظر: الرازي، ٢١٦/٣٢.

وذكر القرطبي أن الله تعالى "نبه على فضل علم الكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة، التي لا يحيط بها إلا هو. وما دونت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامت أمور الدين والدنيا"(١) .

وقد ربط ابن عاشور بين بدء الوحي والآيات التي نزلت فيه وبين اتخاذ النبي صلى الله عليه وسلم كُتَّابا للوحي(٢) .

وقد امتثلت الأمة لتلك الإشارة القرآنية والتطبيق النبوي لها، فأنتجت على مدار القرون المتوالية تراثا مكتوبا لم تعهده أمة من الأمم، ويكفي أن نلقي نظرة إلى تلك الكتب التي مثلت فهارس للتراث الإسلامي لنعرف دلائل هذه الحقيقة آخذين في الاعتبار ما فقد من المؤلفات؛ حيث أظهرت هذه المصنفات أن مسالك المسلمين المعرفية تنوعت ما بين التدوين والاشتغال بالنظر والاستدلال والاستنباط والاجتهاد وتقعيد القواعد وتفريع المسائل بدلائلها وذكر الشبه وأجوبتها وبيان الاصطلاحات والمذاهب(٣) .

ومع عِظَم الكتابة كآلية تعليمية إلا أنه لا يمكن حصر المعرفة التي يتلقاها الإنسان فيما يحصل من خلالها؛ لذلك جاء النص الأعم ليشير إلى أن للمعرفة الإنسانية آليات أخرى.

"وقد حصلت من ذكر التعليم بالقلم والتعليم الأعم إشارة إلى ما يتلقاه الإنسان من التعاليم سواء كان بالدرس أم بمطالعة الكتب، وأن تحصيل العلوم يعتمد أمورا ثلاثة:

---

(١) محمد بن أحمد القرطبي. *الجامع لأحكام القرآن*. ط٢. (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٦٤م)، ١٢٠/٢٠.

(٢) ينظر: ابن عاشور، ٤٤١/٣٠.

(٣) ينظر: حاجي خليفة. *كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون*. (بغداد: مكتبة المثنى،١٩٤١م)، ٣٤/١.

أحدها: الأخذ عن الغير بالمراجعة، والمطالعة، وطريقهما الكتابة وقراءة الكتب فإن بالكتابة أمكن للأمم تدوين آراء علماء البشر ونقلها إلى الأقطار النائية وفي الأجيال الجائية.

والثاني: التلقي من الأفواه بالدرس والإملاء.

والثالث: ما تنقدح به العقول من المستنبطات والمخترعات، وهذان داخلان تحت قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ العلق: ٥، وفي ذلك اطمئنان لنفس النبيء صلى الله عليه وسلم بأن عدم معرفته الكتابة لا يحول دون قراءته لأن الله علَّم الإنسان ما لم يعلم، فالذي علَّم القراءة لأصحاب المعرفة بالكتابة قادر على أن يعلمك القراءة دون سبق معرفة بالكتابة(١) .

المعلم السادس: الإشارة إلى محورية الاستحضار النفسي للتحصيل المعرفي:

من أبرز ما أشارت إليه الآيات التي نزلت في بدء الوحي أن الترقي في المعرفة يحتاج إلى استحضار نفسي؛ لذا ذكر العلماء أن الحكمة في تكرير ما قام به جبريل عليه السلام مع النبي صلى الله عليه وسلم المبالغة في التنبيه، وهذا يعطي دلالة على أن من آليات التعليم الاحتياط في تنبيه المتعلم وحثه على إحضار قلبه(٢).

وقال البلقيني: سبب ذلك أن الكلام العظيم له مقدمات تؤذن بتعظيمه للاهتمام به، وقال بعضهم، وإنما كان شديدا عليه ليستجمع قلبه فيكون أوعى لما سمع(٣).

المعلم السابع: ضرورة إعمال الملكة التدبرية:

إن المعرفة التي أرادها الإسلام هي تلك المعرفة التي تنطلق من إعمال الملكة العقلية بكافة مفرداتها من التأمل والتدبر والاستنباط وغيرها، ولقد ظهر التأسيس لهذا المعلم في بدء الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم حيث إن "معنى أمره تعالى نبيه لا يحرك بالقرآن لسانه ليعجل به، وعدته له أن يجمعه في صدره، لكى يتدبره ويتفهمه، وتبدو له عجائب القرآن وحكمته، وتقع فى قلبه مواعظه، فيتذكر بذلك،

(١) ابن عاشور، ٢٠/ ٤٤١.

(٢) ينظر: الشامي، ٢/ ٢٤٠.

(٣) العسقلاني، *فتح الباري*، ١/٢٠.

ولتتأسى به أمته فى تلاوته، فينالوا بركته، ولا يحرموا حكمته. وقد ذكر الله هذا المعنى، فقال: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ ص: ٢٩[١].

إن تأسيس الإسلام لمكانة الملكة التدبرية من خلال بدء الوحي كان له آثاره العظيمة في مسيرة البناء المعرفي الذي امتد قرونا متتالية وكان الآلية العظمى في تشعب النتاج الفكري في جميع مجالات المعرفة.

أوجه توظيف هذا المرتكز في الواقع المعاصر:

١. إعطاء قضية المعرفة بكل منطلقاتها وآلياتها مكانتها من النقاش الدعوي للتوصل إلى حلول عملية للتراجع المعرفي الذي أصاب الأمة وإذا كانت مسؤولية ذلك تقع على عاتق كل التخصصات العلمية فإن تخصص الدعوة لا يمكن أن يكون استثناء من تحمل تلك المسؤولية.

٢. إذا كان من معالم الإطار المعرفي الذي تم تقريره في مرحلة بدء الوحي ضرورة التحضير النفسي فإن هذا المعلم تزداد أهميته في الواقع المعاصر نظرا لكثرة الملهيات التي تعد من ثمار التقدم التكنولوجي.

٣. حين أكدت مرحلة بدء الوحي على ضرورة إعمال الملكة التدبرية فإن هذا التأكيد يحتاج إلى ترجمات تطبيقية تتخذ من الوسائل المعاصرة آليات محورية للتعامل مع القضايا المعرفية المختلفة.

---

(١) عمر بن علي ابن الملقن، *التوضيح لشرح الجامع الصحيح*، طـــ٢، (دمشق، دار النوادر، ٢٠٠٨م) ٣٥١/٢.

المبحث الرابع: بدء الوحي والتأسيس المنهجي للمرتكز الإنساني:

لقد تنوعت الرؤى والأفكار حول الإنسان في محاولات لتحديد ماهيته والكشف عن سماته وخصائصه وفهم علاقته بالمحيط الكوني من حوله وطبيعة رسالته في الحياة إلى غير ذلك من القضايا الإنسانية التي شغلت حيزا كبيرا من التاريخ المعرفي الإنساني، ويمكن أن نورد العديد من الملاحظات على ذلك تتمثل فيما يلي:

١. أن هذه الأفكار والرؤى قد انطلقت من خلفيات معرفية مختلفة؛ لذا فقد كان نتاجها المتعلق برؤية الإنسان مختلفا.
٢. أن هذه الرؤى لم تنحصر في الاختلاف الظاهري بينها، بل تعدت ذلك إلى ما يمكن عده مسارات متناقضة.
٣. أن هذه الأفكار والرؤى لم تنحصر في قالب نظري فحسب، بل يمكن قراءة الحركة الإنسانية بجميع معطياتها السلبية والإيجابية على كونها القالب التطبيقي لهذه الأفكار.

إزاء هذه المحورية للقضايا الإنسانية وانطلاقا من كون الرسالة النبوية رسالة عالمية جاءت بالأساس بهداية شاملة لهذا الإنسان كان من الحكمة أن يتم تأسيس الرؤية الإسلامية للإنسان من خلال المرحلة الأولية للدعوة وهي مرحلة بدء الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم لتبقى العلاقة بين المرتكز المعرفي والدعوة إلى الله علاقة جذرية لم تنبع من رؤية بشرية يمكن أن تخضع لمؤثرات زمانية أو مكانية، بل تأسست معالمها في ضوء وحي إلهي وتطبيق نبوي مما يعطيها قدرة على تجاوز الإشكاليات أيا كان مصدرها.

ويمكن استلهام الدلالات المؤيدة لذلك من خلال ما يلي:

المعلم الأول: بيان عِظَم خلق الإنسان وعجيب صنعته:

لقد كان من دلالات مرحلة بدء الوحي بيان عظم الخلق الإنساني حتى استحق أن يُفرد بالذكر في أول آيات تنزل على صاحب الرسالة، ولم يكن إفراده بالذكر خاليا من دلالات عدة.

قال الرازي: "قوله بعد ذلك: ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ﴾ العلق: ٢، تخصيص للإنسان بالذكر من بين جملة المخلوقات، إما لأن التنزيل إليه، أو لأنه أشرف ما على وجه الأرض، أو تفخيمًا لخلق الإنسان ودلالة على عجيب فطرته"(١).

وذكر البيضاوي أن الله تعالى قد عدد في آياته بداية أمر الإنسان ونهايته بيانا لنعمه عليه؛ حيث إنه تعالى نقله من أدنى المراتب إلى أعلاها من باب التقرير لربوبيته والحققه لأكرميته كشفا لما أنعم عليه(٢).

إن بيان وحدة الخلق الإنساني في بدء الدعوة قرر المساواة الإنسانية كإحدى المبادئ الجوهرية في هذا الدين، وهذا الإقرار هو الذي رسخ من هذا المبدأ، وجعله سببا محوريا من أسباب انتشار الدعوة في الآفاق (٣).

المعلم الثاني: التأكيد على المهمة الحضارية للإنسان:

من الدلالات الإنسانية التي أصلت لها آيات بدء الوحي أن لهذا الإنسان رسالة حضارية تقوم بالأساس على تحصيل معرفي وأن هذه الوظيفة الحضارية تعد ركنا ركينا في رتبته بين المخلوقات، وقد ألمح الزمخشري أن ذكر خلق الإنسان بعد الأمر بقراءة القرآن يأتي تنبيها على أنه تعالى خلقه للقراءة والدراية كما أن ذكر خلق الإنسان عقيب تعليم القرآن أول سورة الرحمن لنحو ذلك.

وقد عقد الرازي مقارنة بين حالتين من حالات الإنسان: الأولى حالة خلقته من أخس الأشياء، والأخيرة صيرورته عالما بحقائق الأشياء، وهو أشرف مراتب المخلوقات فكأنه تعالى يقول: انتقلتَ من أخس المراتب إلى أعلى المراتب فلا بد لك من مدبر مقدر ينقلك من تلك الحالة الخسيسة إلى هذه الحالة الشريفة، ثم فيه تنبيه على أن العلم أشرف الصفات الإنسانية، كأنه تعالى يقول: الإيجاد والإحياء والأقدار

---

(١) ينظر: الرازي، ٢٢/ ٢١٦.

(٢) عبد الله بن عمر البيضاوي. *تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)*. تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي. طـــ١. (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨هـــ)، ٣٢٥/٥.

(٣) عطية صقر. *الدين العالمي ومنهج الدعوة إليه*. (مجمع البحوث الإسلامية. ١٩٨٨م)،

والرزق كرم وربوبية، أما الأكرم هو الذي أعطاك العلم ؛ لأن العلم هو النهاية في الشرف(١).

المعلم الثالث: محورية القيم الإنسانية في بنية الرسالة:

لا يمكن لاي متأمل لمرحلة بدء الوحي أن يغفل الحضور الجلي للقيم الإنسانية حيث إنها مثلت حجر الزاوية في التجاوب النفسي والفكري من قبل السيدة خديجة رضي الله عنها حين رجع النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول الوحي عليه في الغار حيث رجع يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: «زملوني زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي» فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق(٢) .

إن وصف السيدة خديجة للنبي صلى الله عليه وسلم جاء وصفا شموليا ذا نمط استقرائي.

قال الحافظ: "استدلت على ما أقسمت عليه من نفي ذلك أبدا بأمر استقرائي وصفته بأصول مكارم الأخلاق؛ لأن الإحسان إما إلى الأقارب أو إلى الأجانب، وإما بالبدن أو بالمال، وإما على من يستقل بأمره أو من لا يستقل وذلك كله مجموع فيما وصفته به"(٣).

وإذا كان التحلي بالقيم الإنسانية كان جليا في الحياة النبوية حتى في ممهدات النبوة فإن ذلك يدلل على محوريته في نجاح العمل الدعوي(٤) .

---

(١) الرازي، ٣٢/ ٢١٨.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟، ١/٧، برقم٣.

(٣) العسقلاني، *فتح الباري*، ١/ ٢٤.

(٤) محمد بن إبراهيم التويجري. *الدعوة إلى الله*. طـــ١. (٢٠١٣م)، صـــ٦٥.

المعلم الرابع: الإشارة إلى تفرد الطبيعة البشرية:

لقد كان في نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم إشارة واضحة إلى سنة الله تعالى في اختلاف طبائع خلق الله تعالى وأن الإنسان لا يخرج عن هذه السنة؛ لذا ذكر المقريزي أن الوحي يحدث فيه مفارقة البشرية إلى المدارك الملائكية، وتلقي كلام النفس، فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها، وانسلاخها من أفقها إلى ذلك الأفق الآخر، وهذا معنى الغط الّذي عبّر به في مبدأ الوحي في قوله: (فغطني حتى بلغ من الجهد، ثم أرسلني فقال: اقْرَأْ)[١].

وحين تحدث عن صور الوحي ذكر أنه نظرا لاختلاف الطبيعة البشرية عن الملائكية كان يحدث في الوحي مواءمة ما إما باتصاف السامع بوصف القائل بغلبة الروحانية، وإما باتصاف القائل بوصف السامع وهو البشرية[٢].

المعلم الخامس: التأكيد على سنة التدرج كحاجة إنسانية ووسيلة دعوية:

لقد كان من الدلالات الإنسانية التي أشارت إليها مرحلة بدء الوحي أن من السنن التي تقتضيها الطبيعة البشرية سنة التدرج تلك السنة التي كانت عاملا بارزا من عوامل الترقي الإنساني وتوظيف ما سخره الله للإنسان، وصورة جلية من صور التعاطي الرشيد مع الزمن، لذا رأينا دلائل تقرير هذه السنة حاضرة في مرحلة بدء الوحي من خلال ما يلي:

١. سبق نزول الوحي بممهدات عدة مثل الرؤية الصالحة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يراها توطئة لنزول الوحي، فعن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح...الحديث[٣] .

---

(١) أحمد بن علي المقريزي. *إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع*. تح: محمد عبد الحميد النميسي. طـــ١.(بيروت: دار الكتب العلمية،١٩٩٩م)، ٢/٢٨٤.

(٢) المرجع نفسه، ١/٢٠.

(٣) العسقلاني، *فتح الباري*، ١/ ٢٣.

وإنما كان بدء الوحى بالرؤيا الصادقة ؛لئلّا يفجأه الملك ويأتيه بصريح النبوّة بغتة فلا تقبلها القوى البشرية، فبدئ بأول تباشير النبوة وخصال الكرامة تأنيسا وتمرينا له(١).

إن هذا كان ضمن ما جرت به عادة الله في خلقه من التدريج في الأمور كلها حتى تصل إلى درجة الكمال. ومن الصعب جدا على البشر تلقّى الوحي من الملك لأول مرة(٢).

وبيَّن علقمة بن قيس أن سبق الوحي بالرؤيا الصادقة كان سنة لله في إيحائه إلى أنبيائه ورسله فقال: إن أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام حتى تهدأ قلوبهم ثم ينزل الوحي بعد في اليقظة(٣).

ولم تقتصر ممهدات نزول الوحي بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم على الرؤية الصادقة بل منها كذلك رؤيته للضوء وسماعه للصوت وسلام الحجر(٤).

٢. انقطاع نزول الوحي مدة، وكان ذلك ليذهب ما كان صلى الله عليه وسلم وجده من الروع وليحصل له التشوف إلى العود(٥).

٣. أن في الآيات التي نزلت إقرارا لسنة التدرج حيث إنه تعالى لما أراد أن يبعثه رسولا إلى المشركين، لو قال له: اقرأ باسم ربك الذي لا شريك له، لأبوا أن يقبلوا ذلك منه، لكنه تعالى قدم ذلك مقدمة تلجئهم إلى الاعتراف به، فالحق سبحانه يقول: إن هؤلاء عباد الأوثان، فلو أثنيت علي وأعرضت عن الأوثان لأبوا ذلك، لكن اذكر لهم أنهم هم الذين خلقوا من العلقة فلا يمكنهم إنكاره، ثم

---

(١) رفاعة بن رافع الطهطاوي. *نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز*. طـــ١. (القاهرة: دار الذخائر، ١٤١٩هـــ)، ١/ ١٠٢.

(٢) محمد بن عفيفي الخضري. *نور اليقين في سيرة سيد المرسلين*. طـــ٢. (دمشق: دار الفيحاء، ١٤٢٥هـــ)، صـــ٢٦.

(٣) العسقلاني، *فتح الباري*، ٩/١.

(٤) المرجع نفسه، ١/ ٢٣.

(٥) المرجع نفسه، ١/ ٢٧.

قل: ولا بد للفعل من فاعل فلا يمكنهم أن يضيفوا ذلك إلى الوثن لعلمهم بأنهم نحتوه، فبهذا التدريج يقرون بأني أنا المستحق للثناء دون الأوثان(١) .

٤. ومن دلائل سنة التدرج في مرحلة بدء الوحي أن الآيات التي نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم كانت آيات قصيرة، وظلت هذه السمة سمة القرآن الذي نزل بمكة بخلاف ما نزل عليه بالمدينة إذ كانت تنزل عليه أحيانا سورة بأكملها أو أكثرها في مرة واحدة(٢).

واستمر أسلوب التدرج كسمة من سمات الدعوة فيما يتصل بالأمور التالية:

أولا: في الأمور المأمور بها والتي يدعى الناس إليها.

ثانيا: في الأمور المنهي عنها والتي حرمها الإسلام وأمر بتركها وحذر من فعلها.

ثالثا: فيما يتصل بالمجادلة والمعارضة والتدرج مع القوم حتى يفيئوا إلى الإسلام وإلى روحه ومبادئه الفاضلة (٣).

المعلم الخامس: عِظَم المكون الروحي في بنية الإنسان:

من أعظم الدلالات الإنسانية التي قررتها مرحلة بدء الوحي أن الجانب الروحي له محورية عظيمة في الترقي الإنساني؛ لذا رأينا بدء الوحي قد سُبق بخلوة النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء والتي تعد وسيلة من وسائل إعطاء الروح ما تحتاجه. فالنبي صلى الله عليه وسلم قد " حبب إليه الخلوة لأن معها فراغ القلب والانقطاع عن الخلق ليجد الوحي منه متمكنًا كما قيل: فصادق قلبًا خاليًا فتمكّنا، وفيه تنبيه على فضل العزلة لأنها تريح القلب من أشغال الدنيا وتفرغه لله تعالى فيتفجر منه ينابيع الحكمة" (٤) .

---

(١) الرازي، ٢١٦/٢٢.

(٢) المقريزي، ٣٧٩/٢.

(٣) هاشم، أحمد عمر، الدعوة الإسلامية منهجها ومعالمها، صـــ١٧.

(٤) أحمد بن محمد، القسطلاني. *إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري*. طـــ٧. (مصر: المطبعة الكبرى الأميرية،١٣٢٣هـــ)، ١/ ٦٢.

إن اقتران هذه الحالة النبوية من تغذية الروح بالقيم الإنسانية التي كان يتحلى بها يكشف لنا أن من بين علل إنكار الإسلام على المادية المفرطة كونها تنتج تنكرا للقيم الإنسانية[١] .

أوجه توظيف هذا المرتكز في الواقع المعاصر:

١. أن تكون القضايا الإنسانية توجها جوهريا من توجهات الخطاب الدعوي المعاصر باعتبارها قضايا نبعت أصولها من ثنايا الوحي الإلهي وإذا كانت المناهج التي تدرس القضايا الإنسانية في الواقع الفكري الإنساني متشعبة في منطلقاتها وأهدافها فإن المعالجة الدعوية التي تنبع من المنهج الإلهي لا بد وأن تكون حاضرة في هذا النقاش.
٢. بيان العلاقة المتجذرة بين الوحي الإلهي وبين الطبيعة البشرية، وذلك من خلال أمثلة عملية من السيرة النبوية على أن يتم عرضها عرضا واقعيا ليكون ذلك سبيلا من سبل التوازن بين السعي الإنساني في الحياة والتزامه بالمنهج الرباني.
٣. رصد الأدواء الإنسانية التي تضخمت بسبب الإطار المادي المجرد للحضارة الراهنة وطرح حلول لها من خلاتل ما تم تقريره في مرحلة بدء الوحي.

(١) هاشم، أحمد عمر، الدعوة الإسلامية منهجها ومعالمها، صـــ١٩٠.

المبحث الخامس: بدء الوحي والتأسيس المنهجي للمرتكز الاجتماعي

إن المتأمل للاجتماع البشري يجد أنه يعد مجالا من مجال تدبر الحكمة الإلهية، تلك الحكمة التي أوجدت لهذا الاجتماع سننا يسير عليها ليخالف اجتماع غيره من المخلوقات، وإذا كنا قد بينا أن من مرتكزات مرحلة بدء الوحي المركزات العقدية والمعرفية والإنسانية فإن المرتكز الاجتماعية لم يكن غائبا في هذه المرحلة، ومن معالم تأسيسه ما يلي:

المعلم الأول: تقرير محورية الواجبات الاجتماعية:

لقد كان من الأمور التي تم تقريرها في مرحلة بدء الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ضرورة أداء الواجبات الاجتماعية، فالنبي صلى الله عليه وسلم رغم أنه كان له خلوته المعروفة في غار حراء إلا أن ذلك لم يمنعه من أداء واجاباته الاجتماعية؛ لذلك ذكر العلماء أن من فوائد حديث بدء الوحي أن الانقطاع الدائم عن الأهل ليس من السُّنّة لأنه –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لم ينقطع في الغار بالكلية، بل كان يرجع إلى أهله لضروراتهم ثم يخرج لتحنثه[١] .

المعلم الثاني: إعطاء أنموذج للحياة الزوجية الرشيدة

من الدلالات الاجتماعية التي قررتها مرحلة بدء الوحي أهمية الأسرة المتماسكة التي تتوطد فيها المودة والرحمة بين الزوجين، وتأتي الحياة الزوجية التي كانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين السيدة خديجة رضي الله عنها لتعطي للمجتمع الإسلامي بل والإنساني أنموذجا فريدا لهذه الحياة، ومما أفادته النصوص التي بينت مرحلة بدء الوحي في هذا الإطار ما يأتي:

- لم تجد السيدة خديجة رضي الله عنها غضاضة في ذهاب النبي صلى الله عليه وسلم بعضا من الليالي إلى غار حراء لعلمها بأهمية ذلك.
- أنها كانت تزود النبي صلى الله عليه وسلم بما يلزمه في هذه الرحلة المعتادة.

(١) القسطلاني، ٦٢/١.

- أنها كانت نعم المعين حين فجأه الوحي؛ لذا ذكر الحافظ أن من فوائد حديث بدء الوحي أنه يستحب أن يؤنس الإنسان من فجأه أمر، وذلك بأن يذكر له ما يهونه عليه(١).

وكانت خديجة رضي الله عنها ذات صفات من العقل والحكمة ما يجعلها جديرة بهذه الطمأنينة(٢) .

وإزاء هذا أعطانا النبي صلى الله عليه وسلم صورة من صور الوفاء الاجتماعي أخبرتنا عنها السيدة عائشة رضي الله عنها حين قالت: ما غرت على أحد من نساء النبي صلى الله عليه وسلم، ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول «إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد»(٣).

المعلم الثالث: قيمة الوطن ومكانته:

من أعظم الدلالات الاجتماعية لمرحلة بدء الوحي تقرير قيمة الوطن وأن حبه والتعلق به طبيعة بشرية؛ لذا فحين قال ورقة للنبي صلى الله عليه وسلم: "يا ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك"، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أو مخرجي هم»، قال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي"(٤).

قال أبو شامة: "ففي هذا دليل على حب الوطن وشدة مفارقته على النفس، وأيضا فإنه حرم الله وجوار بيته وبلد أبيه إسماعيل، فلذلك تحركت نفسه عند ذكر الخروج منه ما لم يتحرك قبل ذلك فقال: أو مخرجي هم؟

---

(١) ينظر: العسقلاني، *فتح الباري*، ٢٥/١.

(٢) ممدوح عبد العزيز. *الدعوة في عهدها المكي*. (جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٩٨٢م)، صـــ٢٩.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وفضلها رضي الله عنها، ٣٨/٥، برقم ٣٨١٨.

(٤) البخاري، ٧/١، رقم ٣.

والموضع الدال على تحرك النفس وتحرقها إدخال الواو بعد ألف الاستفهام مع اختصاص الإخراج بالسؤال عنه، وذلك أن الواو ترد إلى الكلام المتقدم، وتشعر المخاطب بأن الاستفهام على جهة الإنكار أو التفجع لكلامه والتألم منه[١].

أوجه توظيف هذا المرتكز في الواقع المعاصر:

١. تأكيد الخطاب الدعوي المعاصر على ضرورة التوازن بين الواجبات المتعلقة بالإنسان عبادية كانت أم اجتماعية.
٢. رصد الإشكاليات التي تعاني منها الحياة الزوجية في المجتمع الإسلامي، ووضع إطار علاجي لها من خلال الصورة المتكاملة التي أوضحتها لنا الحياة النبوية عامة ومرحلة بدء الوحي خاصة.
٣. البحث عن الآليات العملية المعبرة عن حب الأوطان وأداء حقوقها.

(١) عبد الرحمن بن إسماعيل أبي شامة، *شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى*، تح: جمال عزون. ط١. (الشارقة: مكتبة العمرين العلمية،١٤٢٠هـ -١٩٩٩م)، صـ١٦٣.

الخاتمة:

أولا: النتائج:

١. تعد مرحلة بدء الوحي إحدى أبرز مراحل السيرة النبوية نظرا لأبعادها التأسيسية المتشعبة
٢. يعد بدء الوحي البداية التأسيسية للمرتكز العقدي في الإسلام من خلال التدليل على وجود الله تعالى والتأكيد على كمال أسمائه وعظيم صفاته.
٣. يمثل بدء الوحي الأساس المعرفي الذي انطلقت من خلاله الأمة مستلهمة منهجية معرفية شاملة تتمثل في كون المعرفة نعمة إلهية.
٤. لا تنحصر المعرفة في ضوء الإسلام في إطار ذاتي بل إنها سبيل من سبل النفع الإنساني العام.
٥. للمعرفة آليات عدة تتطلب استحضارا نفسيا وفكريا.
٦. كان للمرتكز الإنساني حضوره الكبير في مرحلة بدء الوحي من خلال الحديث عن عظم الخلق الإنساني والمهمة الحضارية لهذا الإنسان.
٧. من القضايا الإنسانية التي تم تقريرها من خلال مرحلة بدء الوحي قضية القيم الإنسانية باعتبارها إحدى سمات صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم.
٨. سنة التدرج حاجة إنسانية ووسيلة دعوية قررتها مرحلة بدء الوحي من خلال ممهدات عدة.
٩. من مظاهر حكمة الله تعالى اختلاف طبائع المخلوقات وتفرد الطبيعة البشرية.
١٠. محورية الجانب الروحي في الترقي الإنساني.
١١. ضرورة التوازن بين الواجبات المتعلقة بالإنسان عبادية كانت أم اجتماعية.
١٢. أعطتنا مرحلة بدء الوحي النبوي صورة متكاملة للحياة الزوجية الرشيدة.
١٣. ضرورة البحث عن الآليات العملية المعبرة عن حب الأوطان وأداء حقوقها استلهاما من أحداث السيرة النبوية.

ثانيا: التوصيات:

- إعداد المزيد من الدراسات التي تتغيا استنباط دلائل التأسيس المنهجي في ضوء أحداث السيرة المختلفة كحجة الوداع وغيرها.
- التعاون المعرفي بين التخصصات العلمية المختلفة في الدراسة الشاملة لأحداث السيرة النبوية.

المصادر والمراجع:

- **بعد القرآن الكريم.**

١. ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين. *زاد المعاد في هدي خير العباد*. طـــ٢. بيروت: مؤسسة الرسالة،١٩٩٤م.

٢. ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري. *التوضيح لشرح الجامع الصحيح*، طـــ١. دمشق: دار النوادر، ٢٠٠٨م.

٣. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد. التحرير والتنوير(تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد). تونس: الدار التونسية،١٩٨٤م.

٤. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر. تفسير ابن كثير *(تفسير القرآن العظيم)*. تح: محمد حسين. طـــ١. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـــ .

٥. الألوسي، محمود بن عبد الله الألوسي. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. تح: علي عبد الباري. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـــ

٦. البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي. صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ، وسننه وأيامه). تح: محمد زهير بن ناصر الناصر. ط١. دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـــ.

٧. البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي. تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل). تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي. طـــ١. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨هـــ.

٨. الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك. سنن الترمذي. تح: أحمد محمد شاكر وآخرون. طـــ٢. مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٧٥م.

٩. الخضري، محمد بن عفيفي. نور اليقين في سيرة سيد المرسلين. طـــ٢. دمشق: دار الفيحاء، ١٤٢٥هـــ .

١٠. خليفة، حاجي. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. بغداد: مكتبة المثنى،١٩٤١م.

١١. الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر. مفاتيح العيب أو التفسير الكبير. طـــ٣. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـــ .

١٢. السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد. الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام. تح: عمر عبد السلام السلامي. طـــ١. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٠م.
١٣. الشامي، محمد بن يوسف الصالحي. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد. تحقيق وتعليق: عادل أحمد – وعلي محمد. طـــ١. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م.
١٤. صقر، عطية. الدين العالمي ومنهج الدعوة إليه. مجمع البحوث الإسلامية. ١٩٨٨م
١٥. الطهطاوي، رفاعة بن رافع. نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز. طـــ١. القاهرة: دار الذخائر، ١٤١٩هـــ .
١٦. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر. فتح الباري شرح صحيح البخاري. بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩هـــ .
١٧. القحطاني، سعيد بن علي بن وهف. فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري. طـــ١. السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف،١٤٢٠هـــ .
١٨. القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري. طـــ٧. مصر: المطبعة الكبرى الأميرية،١٣٢٣هـــ.
١٩. مسلم، مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
٢٠. المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر. إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع. تح: محمد عبد الحميد النميسي. طـــ١. بيروت: دار الكتب العلمية،١٩٩٩م.
٢١. النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. طـــ٢. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢هـــ .
٢٢. هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري. السيرة النبوية لابن هشام. تح: مصطفى السقا وآخرون. طـــ٢. مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٥٥م.
٢٣. هاشم، أحمد عمر. الدعوة الإسلامية منهجها ومعالمها. مكتبة غريب.
٢٤. ممدوح عبد العزيز. الدعوة في عهدها المكي. جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٩٨٢م.

References:

❖ ***After alquran alkarim***

- *Al-Alusi, Shihab Al-Din Mahmoud bin Abdullah Al-Husseini Al-Alusi. Ruh Almaeani fi Tafsir Alquran Aleazim Walsabe Almathani. ed: Ali Abdel Bari 1nd ed. Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, 1415 AH.*
- *Al-Asqalani, Ahmed bin Ali bin Hajar. Fath Albari Sharh Sahih Albukharii. Beirut: Dar Al-Ma'rifa, 1379 AH.*
- *Al-Baydawi, Nasser Al-Din Abu Saeed Abdullah bin Omar bin Muhammad Al-Shirazi Al-Baydawi. Tafsir Albaydawii (Anwar Altanzil Waasrar Altaawili). ed: Muhammad Abd al-Rahman al-Maraashli. 1nd ed. Beirut: Arab Heritage Revival House, 1418 AH.*
- *Al-Bukhari, Muhammad bin Ismail Abu Abdullah Al-Bukhari Al-Jaafi. Sahih Albukharii (Aljamie Almusnad Alsahih Almukhtasar min Umur Rasul Allah Sly Allh Elyh Wslm, Wasunanih Waayaamihi). ed: Muhammad Zuhair bin Nasser Al-Nasser. 1nd ed. Dar Touq Al-Najat, 1422 AH.*
- *Mamdouh Abdel Aziz. Aldaewat fi Eahdiha Almakiyi. Imam Muhammad bin Saud University, 1982 AD.*
- *Al-Khudari, Muhammad bin Afifi. Nur Alyaqin fi Sirat Sayid Almursalin. 2nd ed. Damascus: Dar Al-Fayhaa, 1425 AH.*
- *Al-Maqrizi, Ahmed bin Ali bin Abdul Qadir. Iimtae Alasmae Bima Lilnabii min Alahwal Walamwal Walhafdat Walmatae. ed: Muhammad Abdel Hamid Al-Numaisi. 1nd ed. Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, 1999AD.*
- *Al-Nawawi, Abu Zakaria Muhyiddin Yahya bin Sharaf. Alminhaj Sharh Sahih Muslim bin Alhajaaj. 2nd ed. Beirut: Arab Heritage Revival House, 1392 AH.*
- *Al-Qahtani, Saeed bin Ali bin Wahf. Fiqh Aldaewat fi Sahih Aliimam Albukharii. 1nd ed. Saudi Arabia: Ministry of Islamic Affairs and Endowments, 1420 AH.*
- *Al-Qastalani, Ahmed bin Muhammad bin Abi Bakr bin Abdul Malik. Iirshad Alsaari Lisharh Sahih Albukharii. 7nd ed. Egypt: Al-Kubra Al-Amiriyya Press, 1323 AH.*
- *Al-Razi, Abu Abdullah Muhammad bin Omar. Mafatih Aleayb Aw Altafsir Alkabir. 3nd ed . Beirut: Arab Heritage Revival House, 1420 AH.*
- *Al-Shami, Muhammad bin Youssef Al-Salhi. Subul Alhudaa Walrushad fi Sirat Khayr Aleabad Wadhakar Fadayilih Wa'aelam Nubuatih Waafealih Waahwalih fi Almabda Walmuead. Investigation and commentary: Adel Ahmed Abdel Mawjoud and Ali Muhammad Moawad. 1nd ed. Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, 1993AD.*

• *Al-Suhaili, Abu Al-Qasim Abdul Rahman bin Abdullah bin Ahmed. Alrawd Alanf fi Sharh Alsiyrat Alnabawiat Liaibn Hisham. ed: Omar Abdel Salam Al-Salami. 1nd ed. Beirut: Arab Heritage Revival House, 2000 AD.*
• *Al-Tahtawi, Rifaah bin Rafi. Nihayat Al'iijaz fi Sirat Sakin Alhijaz. 1nd ed. Cairo: Dar Al-Thakhair, 1419 AH.*
• *Al-Tirmidhi, Muhammad bin Isa bin Sura bin Musa bin Al-Dahhak. Sunan al-Tirmidhi. ed: Ahmed Mohamed Shaker and others. 2nd ed. Egypt: Mustafa Al-Babi Al-Halabi Library and Printing Company, 1975 AD.*
• *Hashem, Ahmed Omar. Aldaewat Aliislamiat Manhajuha Wamaealimuha. Strange Library.*
• *Hisham, Abdul Malik bin Hisham bin Ayoub Al-Himyari Al-Maafiri. Alsiyrat Alnabawiat Liabn Hisham. ed: Mustafa Al-Saqqa and others. 2nd ed. Egypt: Mustafa Al-Babi Al-Halabi and Sons Library and Printing Company, 1955 AD.*
• *Ibn al-Mulqin, Siraj al-Din Abu Hafs Omar bin Ali bin Ahmed al-Shafi'i al-Masry. 1nd ed. Damascus: Dar Al-Nawader, 2008 AD.*
• *Ibn al-Qayyim, Muhammad bin Abi Bakr bin Ayoub bin Saad Shams al-Din. Zad Almuead fi Hady Khayr Aleabad. 2nd ed. Beirut: Al-Resala Foundation, 1994AD.*
• *Ibn Ashour, Muhammad Al-Tahir bin Muhammad bin Muhammad. Altahrir Waltanwir (Tahrir Almaenaa Alsadida, Watanwir Aleaql Aljadid min Tafsir Alkitaab Almajid). Tunisia: Dar Al-Tunisia, 1984 AD.*
• *Ibn Kathir, Abu Al-Fida Ismail bin Omar. Tafsir Abn Kathir (Tafsir Alquran Aleazim). ed: Muhammad Hussein Shams al-Din. 1nd ed. Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, 1419 AH.*
• *Khalifa, Haji. Kashaf Alzunun Ean Asami Alkutub Walfunun. Baghdad: Al-Muthanna Library, 1941 AD.*
• *Muslim, Muslim bin Al-Hajjaj. Sahih Muslim, ed. Muhammad Fouad Abdel Baqi. Beirut: Dar Revival of Arab Heritage.*
• *Saqr, Attia. Aldiyn Alealamiu Wamanhaj Aldaewat Iilayh. Islamic Research Academy. 1988 AD.*